الموروث والمُكتَسَب كيف سيتركان بصماتهما على المرء سلباً أو إيجاباً ؟ .

في الموروث: مزاجٌ حادّ، وذكاء حادّ.

وفي المكتسَب: أجواءٌ حادّة: ـ في البيئة..

ـ وفي أحداث العنف المتعاقبة على أيدي التتار.

ـ وفي رُعبٍ لا يوصَف بين جنبي الصغير الذي يرى أهله وأهل بلدته يذعرون ويفرّون بأرواحهم في المسالك الوعرة والموتُ يطاردهم.

ـ وفي نشأة مع شباب الحنابلة الّذين يميلون إلى العنف في مواجهة أخطاء العوامّ، وفي تطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ـ ونزعة إلى الرئاسة الدينيّة في بيت أحتفظ بهذه الرئاسة قرناً من الزمن.

ـ وزعامة المذهب في مستهلّ العمر، في الحادية والعشرين.

كلّ هذه عوامل قد تأثّر بها الشيخ ابن تيميّة تأثّراً إيجابيّاً، إلّا واحدة منها، وهي تلك الهزيمة المؤلمة أمام الاجتياح التتري، فقد كان تأثّره بها سلبيّاً، فنشأ ناقماً عليهم محبّاً لمهاجمتهم ومطاردتهم محرّضاً على ذلك بكلّ ما يملك من وسائل حتّى شارك بنفسه في قتالهم. فلا شكّ أنّ الرعب والهزيمة قد يخلقان في المرء الميل إلى الانتقام.

أمّا العوامل الأُخرى فقد وجدت لها بين جنبيه مستقرّاً تجمّعت فيه وتكاملت حتّى برزت في سلوكه بروزاً قلّ نظيره، فنشأ الرجل حادّاً في ذكائه، حادّاً في أحاسيسه، حادّاً في مزاجه، مسارعاً إلى العنف في مواجهة خصومه ومهاجمة أفكارهم، يرى أنّ الزعامة الدينيّة طبعٌ فيه لا ينبغي أن ينازعه عليها أحد، بل لا ينبغي لأحد أن يشكّ في زعامته!.

هاجم المذاهب الفقهيّة والكلاميّة، وهاجم الفرق والعلماء، وهاجم المواقع التي يرتادها الصوفيّة فخرّبها يتبعه مؤيّدوه من الشباب المتسارعين إلى مثل هذا، وبقي مدّة من الزمن يستدعي أفراداً فيعاقبهم بيده على مخالفة بعض السنن، وحارب المخالفين في جبال سورية بالسيف وغزاهم مع الجيش وأباح للجيش تخريب بساتينهم وهدم منازلهم وإجلائهم من أراضيهم.

إنّه لا بُدّ أن يهاجم، وقد شغف بمهاجمة الفرق الإسلاميّة وعلماء المسلمين، وكان معهم على الدوام حادّ اللسان، جارح العبارة، يهاجم ويُكذّب خصمه، ويطعنه دون أدنى تردّد حتّى لم يترك أحداً خاصمه إلّا ويصفه بالضلال أو الكذب والافتراء، أو الجهل، أو تقليد اليهود والنصارى، أو اتّباع الفراعنة والهنود واليونان! ولا فرق في ذلك بين خصم يناظره وجهاً لوجه، وآخر يردّ عليه في كتاب أو خطاب، وآخر قد مات منذ عهد طويل..

إنّه لا يوفّق للصواب من يتنكّر لتأثير البيئة والوراثة في صناعة هذه السجايا.

وثَمّة عامل آخر ساهم في إلهاب حدّة هذا الرجل وسرعة تأجّج غضبه، رافقه حتّى النهاية، وهذا العامل لا يعدو في أصله أن يكون وليداً لمؤثّرات البيئة والوراثة، أو نقصاً عضويّاً، لكنّه أصبح فيما بعد عاملاً مستقلّاً له آثاره الخاصّة في

حياة الرجل وسلوكه بلا شكّ، وذاك هو: عزوفه عن الزواج !.

ولا يخفى أنّ العزوف عن الزواج ليس بالأمر الطبيعي، وخصوصاً مع كون الرجل من الفقهاء في دينٍ لا يبيح ذلك، ويعيب الرهبانيّة لأجله !.

ومن الطريف أن أقرأ عند بعض الأساتذة تشخيص هذه الظاهرة عند الشيخ ابن تيميّة عن غير قصد منه، وربّما لم يخطر ذلك له ببال !.

فقد قرأتُ عند الدكتور عبدالرحمٰن صالح وهو يحدّد معنى الزهد كما جاء به الإسلام، حين قال: يرى ابن تيميّة أنّ الزهد عكس الرغبة، فعندما نقول إنّ هذا الرجل زاهد في شيء معيّن، فالمقصود أنّه لا يرغب في الحصول عليه.

ثمّ أتى الدكتور بمثال على ذلك فقال: وإذا كان الأمر كذلك فإنّه لا يحقّ للمسلم أن يترك أمراً أو عملاً أمره الله به بحجّة الزهد، فربّ العالمين حثّ على الزواج وحارب الرهبانيّة، ولا يُعقل أن يقبل الإسلام العزوف عن الزواج بدعوى الزهد والورع !(١).

ولم يكن الدكتور حين كتب هذا يقصد التشنيع على الشيخ ابن تيميّة، وإنّما الموافقات هي التي ساقته إلى هذا المثال في هذا الموضع !.

إنّه حين يكون المرءُ حاداً في طبعه فلا يُنكر ما ستضفيه عليه حالة العزوبة الدائمة من زيادة في الحِدّة، وسرعة في الغضب، وتوتّر في المزاج قد لا يدرك المرء أسبابه الحقيقيّة، وقد يستهجن النظرة العلميّة والآثار الواقعيّة التي تؤكّد بأن الاستمرار في كبح الغريزة الجنسية يولّد أنواعاً من التوتّر والانشداد العصبي تظهر على السلوك بألوان مختلفة، قد يدركها الشخص المصاب وقد لا يدركها.

---

(١) دراسة في الفكر التربوي الإسلامي ٢٣.

وأيضاً فثمّة ناحية أُخرى قد تُعزىٰ إليها بعض الملاحضات المأخوذة علىٰ تراث الشيخ ابن تيميّة، وهي أنّ علماء النفس يقولون: إنّ هناك تناسباً عكسياً بين قوّة الحافظة، وقوة النّظم الفكري، فزيادة الحافظة لا تكون إلّا على حساب القدرة الفكرية في تنظيم الأفكار وترتيب الأحكام. والعكس بالعكس.

لذا كان الأديب الشهير مصطفى لطفي المنفلوطي يرى أنّ سرّ براعته الأدبيّة هو ما كان يعانيه من ضعف في الذاكرة، أو أنّ براعته تلك كانت على حساب حافظته.

وهكذا رأى بعض الدارسين في السيّد جمال الدين الأفغاني حين لاحظوا أنّ تفوّقه الكبير في نظم الأفكار والأحكام كان على حساب قوّته الحافظة، إذ كانت دون ذلك بكثير.

وعلى العكس منهما كان الشيخ ابن تيميّة، فقد تميّز بحافظة ثاقبة عزيزة النظير، فلا غرابة أن تغتصب قدراً من انتظام الأفكار والأحكام الفكريّة لديه.

إنّ تجمّع هذه الظواهر بشكلها البارز في سلوك الشيخ ابن تيميّة وفي آفاقه الفكريّة ليرجّح صحّة الرسالة المنسوبة إلى الذهبي يخاطب بها ابن تيميّة فيعطي فيها تشخيصاً دقيقاً لنزعته الثابتة قد لا يقدر عليه ممّن عاصر الشيخ وعايشه غير الحافظ الذهبي.

ويؤيّد صحّة نسبتها إلى الذهبي أيضاً أنّه لم يكتبها لينشرها في كتبه فيُشهّر بالشيخ ابن تيميّة ويعيب عليه نزعته الخاصّة، وإنّما وجّهها إليه خطاباً شخصياً فقط، فحُفظت نسختها ونُقلت من خطّ الذهبي.

ومما قاله الذهبي في رسالته مخاطباً ابن تيميّة:

ـ إلى كم ترى القذاةَ في عين أخيك، وتنسى الجذع في عينيك ؟!.

ـ إلى كم تمدح نفسك وشقاشقك وعباراتك، وتذمّ العلماء وتتتبّع عورات الناس مع علمك بنهي الرسول ﷺ «لا تذكروا موتاكم إلّا بخير فإنّهم قد أفضوا إلى ما قدّموا» ؟! بل أعرف أنّك تقول لي لتنصر نفسك: إنّما الوقيعة في هؤلاء الّذين ما شمّوا رائحة الإسلام ولا عرفوا ما جاء به محمّد ﷺ، وهو جهاد ! بل والله عرفوا خيراً كثيراً ممّا إذا عمل به [المرء] فاز، وجهلوا شيئاً كثيراً لا يعنيهم، ومن حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

ـ يا رجل، بالله عليك كفّ عنّا، فإنّك محجاج عليم اللسان، لا تقرّ ولا تنام !.

ـ والله لقد صرنا ضحكةً في الوجود، فإلى كم تبثّ دقائق الكفريّات الفلسفيّة ؟!.

ـ يا رجل، قد بلعت سموم الفلاسفة وتصنيفاتهم مرّات، وكثرة استعمال السموم يدمن عليها الجسم، وتكمن والله في البدن !.

ـ وا شوقاه إلى مجلسٍ يُذكر فيه الأبرار، فعند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، بل عند ذكر الصالحين يُذكَرون بالازدراء واللعنة !!.

كان سيف الحجّاج ولسان ابن حزم شقيقين، فواخيبتها !.

ـ إلى متى تمدح كلامك بكيفيّةٍ لا تمدح والله بها أحاديث الصحيحين ؟! يا ليت أحاديث الصحيحين تسلم منك، بل في كلّ وقت تُغير عليها بالتضعيف والإهدار، أو بالتأويل والإنكار.

ـ وهل معظم أتباعك إلّا قعيد مربوط خفيف العقل ! أو عامّي كذّاب بليد

الذهن ! أو غريب واجم قويّ المكر ! أو ناشف صالح عديم الفهم ؟! فإن لم تصدّقني فتشّهم وزِنْهم بالعدل.

ثمّ ختمها بقوله:

فما أظنّك تُقبل على قولي، ولا تصغي إلى وعظي، بل لك همّةٌ كبيرةٌ في نقض هذه الورقة بمجلّدات، وتقطع لي اذناب الكلام، ولا تزال تنتصر حتّى أقول: البَتَّةَ سَكَتَّ !![1].

تلك أبرز الملامح الغريبة في ذلك الرجل الغريب..

إنّه لابُدّ أن يهاجم، وإذا هاجم فلابُدّ أن ينتصر، فإن لم تسعفه الحجّة لجأ إلى التضعيف والإهدار، أو التأويل والإنكار، أو العيب والجرح والتكذيب، ومن الطبيعي جدّاً أن لا يجد بين أهل العلم مَن يقابله بمثل هذه الكلمات النابية لأنّهم أبعدوها عن ساحتهم، بل طالما ابتعد العلماء عن مواجهته تحاشياً من ذلك.

مع هذا فقد كان بارعاً في استخدام جملة من المصطلحات الرنّانة، كـ (اتّفاق أهل العلم) و (إجماع السَّلَف) و (قول السَّلَف) و (عقيدة السَّلَف) و (لم يذكر ذلك أحد)، ونحو هذا ممّا استحوذ على كثيرٍ من معاصريه، ومن المقلّدين في كلّ جيل، من دون أن يتطرّق إلى مخيّلاتهم أنّها مجازفات بعيدة عن الواقع !.

لكنّ تلك المجازفات وما رافقها من إصرار وحماس، جعلت منه لدى بعض الدارسين وكثير من المقلّدين رجلاً عبقريّاً لا يضاهى. ثمّ أضفى المقلّدون على هذه العبقريّة صفة القداسة، وهذا شأن المقلّدين دائماً مع كلّ شخصيّة يعظّمونها.

---

(١) هذه فقرات من الرسالة أخذناها عن كتاب (الغدير) ٥: ٧٨ ـ ٨٩، ونقل هو عن (تكملة السيف الصقيل) للكوثري: ١٩٠، وكتبه الكوثري من خطّ قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة، وكتبه الأخير من خطّ الحافظ أبي سعيد بن العلائي وقد كتبه من خطّ الذهبي.

ومن ناحية أُخرى فقد بالغ في الانتصار لما تمسّك به المقلّدون قديماً من آثار الثقافة الأُمويّة، ثمّ تقدّم عليهم كثيراً ليجرّ وراءه تيّاراً جديداً يحفظ له إبداعه..

لقد حدّثنا التاريخ صراحةً أنّ كثيراً من الحقائق التي تمسّ قضيّة الخلافة كانت تُخفى تحاشياً لإثارة العامّة التي أصبحت لا تعتقد إلّا بما سمعته ونشأت عليه ممّا أذِن به الأُمويّون وأشاعوه، وترى أنّ كلّ ما خالفه فهو باطل، وقد لا تحتمل سماعه!.

هكذا حدّثنا الطبري صراحةً في قصّة أبي ذرّ الغفاري، وفي المكاتبة التي جرت بين معاوية ومحمّد بن أبي بكر، قال الطبري: كرهت ذكرها لاحتوائها أُموراً لا تحتملها العامّة![1].

وكلّ الذي انطوى عليه ذانك الحَدَثان هو الإثارة في قضيّة الخلافة وتسليط الضوء على حقّ عليّ ﷺ خاصّة.

فجاء ابن تيميّة فثار على تلك الأُمور ثورةً ينتصر فيها لعقائد العامّة أشدّ انتصار، ثمّ تقدّم عليهم غلوّاً في الأمر فأنكر كثيراً ممّا كانت العامّة ترتضيه ولو على نوع من التأويل، أو قدر من عدم الرضا..

أنكر أن يكون أبو بكر في جيش أُسامة، وهذا شيء سمعته العامّة ورضيت به.

وأنكر أن يكون أبو بكر وعمر قد حملا راية خيبر أوّلاً ثمّ عادا بها من غير فتح، وهذا أيضاً ممّا كان يجرؤ المؤرّخون على ذكره، فذكروه، وذكره الطبري الذي كان صريحاً في تجنّب ما يثير العامّة، فكانت العامّة تحتمله إذن، لكنّ ابن تيميّة لم يحتمله!.

ثمّ ذهب إلى أبعد من هذا، فتنكّر لكثير من فضائل عليّ ﷺ وخصائصه التي تسالم أصحاب الحديث والسِيَر على ذكرها، كحديث المؤاخاة وحديث محاربة

---

(١) تاريخ الطبري / أحداث سنة ٣٠ ج ٤: ٢٨٣، أحداث سنة ٣٦ ج ٤: ٥٥٧.

الناكثين والقاسطين والمارقين .

فلماذا لا تجد فيه تلك الطبقة أملها المنشود ، وإمامها الموعود ؟! .

تلك المزايا مجتمعةً هي التي شكّلت الأسباب الحقيقيّة لبروزه وتصدّره على رأس تيّار كان مشتّتاً فوجد له من ينظّم أمره .

ذلك هو حال المقلّدين معه .

وأمّا الدارسون فكانوا على قسمين ، انضمّ أحدهما إلى طبقة المقلّدين بالكامل ، يكرّر الأقوال بلا تمييز بين صواب وخطأ ، أو حقّ وباطل ، ويُقدّس ويعظّم إلى نهاية المطاف ، ليجعل منه صورة حيّة للسَّلَف الصالح في أقوالهم وأفعالهم وعقائدهم !! .

بينما التزم القسم الثاني النهج العلمي في الدرس ، ولا غرابة أن يتفاوت الالتزام بالنهج العلمي ، وأن تتفاوت نتائج الدراسات ، فهذا أمر مألوف في كلّ دراسة .

وقد رأى هذا الفريق من الدارسين في الشيخ ابن تيميّة ملامح إمام فتح أبواباً جديدةً في الإفتاء والاجتهاد ، وفي الكلام والعقائد ، وربّما في التفسير أيضاً ، فاخترق حواجز التقليد ، ومهّد للتجديد طريقاً لا تنتفي الحاجة إليه .

لكن فاتهم أنّ هذه في الحقيقة ما هي إلّا دعوى اكتُشِفت أخيراً للظهور بتبرير علمي مقبول لمتابعة ابن تيميّة ونشر سائر أفكاره ، وقد روّج لها بعض المستشرقين أيضاً ، وساعد على رواجها أنّ الفئات السياسيّة المتنفّذة أمس واليوم لم تجد في هذه الدعوى ما ينفّرها ، بل وجدت فيها ما يطمئنها حين أدركت أنّ الشيخ ابن تيميّة كان دائماً شديد التحذير من الخروج على السلطان وإن كان ظالماً ومجاهراً بالفسق وركوب المحرّمات ، وأيضاً فإنّ هذه النقطة بالذات قد أصبحت نقطة التقاء الفُرقاء

المتخاصمين على الدوام، يلتقي عندها الظالم والمظلوم، والمفسد والمُصلح! فكثير من دعوات التغيير قد اتّخذت من هذه النظرية مبدأً لها، فهي تحرّم الخروج على السلطان وإن عطّل الحدود وتجاوز في الظلم والإفساد أقصى مداه.

فاتّخذ هؤلاء من تلك النظرية ذريعةً لتقصيرهم وتباطئهم، واتّخذ منها أُولئك آلةً لبقائهم في الملك وتماديهم!.

وإذا أغفلنا هذه الحقيقة الظاهرة فإنّ التقييم المتقدّم ـ الذي يرى في ابن تيميّة إمام التجديد ـ قد يصدق في النظرة الكليّة إلى دراسات الشيخ ابن تيميّة ومصنّفاته وعناوين بحوثه، ولكنّه لا يصدق مع التفاصيل التي رأينا كيف كانت مليئةً بالأخطاء والمغالطات والمجازفات الخطيرة.

وقد تنبّه بعض الدارسين إلى هذا فرأى أنّ ما أصاب به الشيخ فهو لنا، ننتفع به بقدر ما يمكنه أن ينفعنا. وأمّا أخطاؤه في التفاصيل وفي بعض العناوين فهي عليه، وقد أفضى إلى عمله.

وهذه نظرة جيّدة وفهم صحيح يعرف للعلم حقّه من دون أن يحمله هذا على الغلوّ في الرجال وتقديسهم ومتابعتهم حتىّ على الخطأ والمحذور الشرعي.

ولكنّ الواجب في منهج كهذا أن لا يغفل التنبيه إلى هذه النقطة المهمّة التي بُني عليها، لأنّ الاقتصار على ذكر الجوانب الصحيحة علميّاً وشرعيّاً سيغري المقلّدين الّذين يتمسّكون بأيّ ذريعة مهما كانت واهية، لأجل تعزيز اعتقادهم في الرجل الذي غالَوا في تعظيمه، وبالخصوص حين تكون تفاصيل أفكاره وجملة من كبريات مبادئه مليئةً بالمخاطر والمسالك المُردية، والانحرافات العقائديّة المُهلكة، إذ سيكون الأمر أشدّ خطراً، وتكون عاقبة الإغراء أكثر سوءاً.

وهذا الأمر هو الذي دفعنا للكتابة في هذا الرجل وعقيدته..

فإلى متى نقدّس الرجال، أصابوا أو أخطأوا ؟!.

إلى متى نقدّس أسماءً لا نعرف عن بواطنها وخفاياها شيئاً ؟!.

فلنكن أكياساً كما أراد لنا الله تعالى، وكما أرشدنا ديننا الحنيف وقد رسم لنا المنهاج الحقّ بكلّياته وتفاصيله، فما طابقه فهو الصواب، وما خالفه فهو الباطل المردود على أهله أيّاً كانوا، ومهما كانت أسماؤهم أو عناوينهم.

علينا أن نعبد الله بهديه وسُنّة نبيّه، لا بأقوال الرجال وإن أخطأوا، لئلّا نكون كقوم سخط الله عليهم فقال فيهم: ﴿ *اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ* ﴾[1].

فالمحجّة بيضاء، والصراط مستقيم، وللحقّ علامات، وعليه نورٌ وبهاء، لا يطلب في متاهات المتكلّمين والتواءات المجادلين، ولكن ﴿ *مَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ* ﴾[2].

ألا وإنّ «أصدق الحديث كتاب الله، وأفضل الهدي هدي محمّد ﷺ، وشرّ الأُمور محدَثاتُها»[3].

ـ و «إنّ الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبين ذلك أُمورٌ متشابهات، فمن تركهنّ سَلِمَ دينهُ وعِرضُه، ومن أوضَعَ[4] فيهنّ يوشك أن يقع فيه»[5].

ـ و «إنّ الله أنزلَ كتاباً وافترض فرائضَ فلا تنقُصوها، وحدّ حدوداً فلا

---

(١) التوبة ٩: ٣١.

(٢) الحشر ٥٩: ٧.

(٣) مسند أحمد ٣: ٣١٠.

(٤) أي: أسرع.

(٥) أخرجه الدارقطني في السنن ـ كنز العمّال ٣: ٤٢٣ / ٧٣١٤.

تُغيّروها، وحرّم محارمَ فلا تقربوها، وسكت عن أشياء لم يسكت عنها نسياناً، كانت رحمةً من الله فاقبلوها، إنّ أصحاب الرأي أعداء السنن! تفلّتت منهم أن يعوها، وأعيتهم أن يحفظوها، وسُلبوا أن يقولوا: لا نعلم، فعارضوا السنن برأيهم، فإيّاكم وإيّاهُم»[1].

ـ «ألا أيّها الناس، إنّما أنا بشر يوشك أن يأتي رسولُ ربّي فأُجيب، وأنا تاركٌ فيكم الثقلين: أوّلهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، وأهل بيتي، أُذكّركُم الله في أهل بيتي، أُذكّركُم الله في أهل بيتي، أُذكّركُم الله في أهل بيتي»[2].

ـ «إنّي لكم فَرَطٌ، وإنّكم واردون عليَّ الحوض، عرضه ما بين صنعاء إلى بُصرى، فيه عدد الكواكب من قدحان الذهب والفضّة، فانظروا كيف تخلُفوني في الثقلين.

قيل: وما الثقلان يا رسول الله؟.

قال: الأكبر: كتابُ الله، سببٌ طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسّكوا به لن تزلّوا ولن تضلّوا؛ والأصغر: عترتي، وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض، وسألتُ لهما ذاكَ ربّي، فلا تَقدّمُوهما فتهلكوا، ولا تعلّموهما فإنّهما أعلم منكم»[3].

ربّنا تقبّل منّا، واشرح صدورنا لما تحبّ وترضى
٢٥ رجب ١٤١٤.

---

(١) منتخب كنز العمّال ١: ١٢٧.
(٢) أخرجه مسلم في الصحيح ٤: ١٨٧٣ / ٢٤٠٨.
(٣) أخرجه الطبراني عن زيد بن أرقم ـ منتخب كنز العمّال ١: ١٢٠، مجمع الزوائد ٩: ١٦٣ ـ ١٦٤، الصواعق المحرقة ـ باب ١١ فصل ١، ومختصراً في سنن الترمذي ح/ ٣٧٨٨، والمستدرك ٣: ١٤٨.